

أهمية المرجعية في حياة الإنسان

الباحثة ميسون برغل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين....

شروط المرجعية اثنين :

الأول : أن يكون لها أساس معتبر ديني أو أخلاقي .

الثاني : أن يكون لها تطبيق عملي لا قولي في حياة الإنسان .

أما عن معنى المرجعية فهي بكل بساطة العقيدة التي يُؤمن بها الشخص أو المقياس والميزان الذي يستعمله في موازنة الأشياء .

واتخاذ الإنسان منّا مرجعية معيّنة وثباته عليها معناها ثباته على مبدأ هويّ مؤمن به ويعتقد بصحته، وهذه دلالة مبدئية على عدم عشوائية هذا الشخص في حياته سواء من حيث أفكاره وأهدافه أو من حيث علاقاته مع من حوله .

وجود المرجعية في حياة الإنسان تفيده بشكل أساسي على توحيد الوجهة وبالتالي تركيز الطاقة وعدم تشتيتها في بلوغه الهدف الذي رسمه لنفسه .

الإنسان فينا في خضم علاقاته اليومية بمن حوله تربطه معهم روابط مختلفة من العلاقات، وفي أثناء هذه العلاقات يحتاج المرء منّا إلى إبداء آراء أو اتخاذ مواقف... وهنا تأتي دور المرجعية التي يكون لها الفضل في عدم وقوع الفرد منّا في تناقضات تفرز العديد من المشاكل .

الحقيقة أستطيع القول أنه والله الحمد المرجعية الأساسية المعتمدة في مجتمعنا وعلى نطاق واسع هي ديننا الإسلامي وأوامره ونواهيه، ولكن أستطيع القول أيضا أنّها مرجعية تكاد تكون نظرية الى حدٍ بعيدٍ وبعيدة عن التطبيق الفعلي والحقيقي، أما السطوة الفاعلة حقاً والتي لها اليد العليا في مجتمعنا إنما هي سطوة العادات والتقاليد

والمحسوبيات التي قد تبتعد في كثير من الأحيان أو تقترب من أوامر الشرع ونواهيه .

وهذا يفرز الكثير من المشاكل والتناقضات بسبب عدم الالتجاء لمقياس واحد نقيس به الأمور فتري تصرفات الأفراد خاضعة لاعتبارات مختلفة فمنها ما يكون العاطفة البعيدة عن ميزان العدل أو ترجيح مصالح دون مصالح بغير وجه حق.

والحقيقة أنّ المشاكل في هذه الحالات لا تطال الجانب الاجتماعي فحسب وعلاقات الناس بعضها ببعض ولكنها تطال أيضاً الجانب الفردي فينعكس على الفرد قلقاً واحباطاً وتعباً. هنا تأتي دور المرجعية الثابتة القائمة على موازين من العدل والحكمة التي لا تحابي أحد على حساب أحد والتي يكون لها كلمة الفصل في جميع المنازعات فالرضاء التام من جميع الأفراد في الاحتكام لجهة واحدة موثوقة هذا في حقيقته ينجّض نسبة كبيرة ومرتفعة من المشاكل التي يعاني منها المجتمع ككل.

إذاً هناك حاجة الى وجود مرجعية واحدة حائزة على ثقة الجميع أو الأكثرية ويكون لديها قدرة إلهية وليست بشرية على صوغ علاقات الناس في صيغة تحقق المصلحة للجميع دون فوارق اجتماعية او مالية، ولكن قبل الوصول الى الحالة الاجتماعية علينا أن نتحقق أولاً من وجود هذه المرجعية على المستوى الشخصي، لماذا؟ لأن المجتمع إنما هو مجموع أفراد فإذا وجدت هذه المرجعية لدى الأفراد فهي حتماً ستكون لدى المجتمع ككل.

إذاً هنا يكمن السؤال، أنا في خضم علاقاتي مع من حولي صباحاً ومساءً هل يكون المعيار في تعاملاتي حقاً وأمر الله ونواهيه.... وطبعاً الكل يعلم جيداً أنّ هذا ليس بالسهل أبداً أن تتجاوز أشكال المراعات سواء العائلية أو الاجتماعية أو المصلحية لالتزم بنهج واحد وثابت، وهذا قد يُوقع الإنسان (بدايةً) في مشاكل ويزجّج به (بدايةً) في متاعب وأقول بدايةً فقط لأن هذا الكم من المشاكل لا يُقارن بحالٍ من الأحوال بالمشاكل التي قد يقع فيها الفرد منّا إن هوراعى الآخرين على حساب دينه، مشاكل قد تتعدى دنياه الى أخراه.... ولشدة أهمية هذا الموضوع جاء الخطاب للمؤمنين في هذه الآية الكريمة " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتّقوا الله ان الله عليم بذات الصدور ".

وأقول أيضاً (بداية) لأن الناس على اختلافهم يعرفون الصالح من الطالح قد يحتاج الأمر لبعض من الوقت فإنها قوة الأهواء والرغائب التي تحجب الرؤيا أحياناً ولكنها بمجرد أن تخبو وتضعف يظهر حقاً الصادق من الكاذب والنّاصح من الخائن.

الواجب في ذلك كله ألا يكون نظرك مشدوداً لرضا الناس أو سخطهم وإنما المرجعية لديك هي رضا الله وسخطه فالقلوب بين يدي خالقها يقبلها كيف يشاء ولنرجع إلى القدوة البشرية الأولى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد سار إلى الحق في خطوات صحيحة وفي خضم ذلك واجه العديد من الاتهامات التي لوؤجّحت إلى أحدنا واحدة منها فقط لزلّت به في حالة نفسية سيئة ومحبطة ولكن الذي أعانته على ذلك أنّ خطواته كانت في الاتجاه الصحيح وكانت لديه مرجعية صحيحة، والنتيجة الآن في حق رسول الله هو قوله تعالى " ورفعنا لك ذكرك " وإلى قيام الساعة.

وإنّه ليحضرني حديث رسول الله الذي كان الشعار الأمثل للدكتور البوطي (من التمس رضاه الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضاه الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) وكانت النتيجة في حقه قوله تعالى " ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها " والجميل في هذا الأمر أن بحثك وحرصك على إرضاء الله عز وجل هو يشمل في طياته إرضاء جميع الأطياف التي تتعامل معها على منهج قويم عادل وحكيم لا يُغبن أحد على حساب أحد ويُعطى كل ذي حق حقه.

بقي خطوة واحدة وهي أنّه لا يكفي أن يكون لي مرجعية واحدة أحرص على تطبيقها فحسب بل الأهم من ذلك أن أكون ملماً بأحكام هذه المرجعية متبصراً بفروعها عالماً بالمواطن التي تسمح لي فيها بالرفق أو الشدة، بالتسامح أو المطالبة... متى أغض الطرف عن حقوقي ومتى أُطالب بها. فمعرفتي هذه وفق المنهج الإلهي الصحيح تكفل لي التعامل الأمثل مع من حولي سواء أَرْضاهم ذلك أو لم يرضهم، والحقيقة أنه من تعامل مع الآخرين وفق منهج شريعة الله له كفالة عند الله في جانبين الأول يكفل سعادته وحفظه في ماله وولده ونفسه والجانب الآخر يكفل حمايته وحفظه

فهو في حرز الله ورعايته في الدنيا والآخرة واسمع قول الله تعالى " من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " .

وليس معنى هذا الكلام أن الإنسان في معرض تطبيقه لهذا الكلام لا يصيبه مصاعب أو متاعب وإنما المقصود أن وقع هذه المشاكل عليه يختلف تماماً عن غيره ذلك أن صعوبة المصائب لا تكمن في نفسها وإنما وقعها على الإنسان وفي هذا اختلاف كبير وواضح بين أناس وأناس، إنك تنظر فتري أن هناك أناس عديدون يقعون في مصائب متشابهة وإنك لتلاحظ ردود أفعالهم تجاه هذه المصائب يختلف تماماً بحسب الحال الذي عليه الإنسان من بعده أو قربه عن تطبيق أوامر وشرع الله بشكل حقيقي - نسأل الله العفو والعافية لنا وللجميع - ونضيف أمراً آخر أنه مخالفتك لهوى ورغائب من حولك إرضاءً لشرع الله له وقع في نفوسهم يختلف تماماً عن مخالفتك أهوائهم إرضاءً لنفسك وحظوظها، وهذا ما عبّر عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأمر : (إذا أحبّ الله العبد نادى جبريل إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إنّ الله يحبّ فلاناً فأخبره فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض). فلكلّ علاماته ولكلّ دلائله وللدكتور البوطي كلمة جميلة في هذا الصدد حيث يقول : "الإخلاص له رائحة تفوح " .

فلا تنظر الى رضى الخلق أو سخطهم كميّار لسيرك الصحيح وأمّا عن مقولة (السنة الخلق أقلام الحق) فالمقصود بها الخلق الذين تجردت آراؤهم عن أهوائهم وليس من تبعت آراؤهم أهوائهم .
ليكن حرصنا بدايةً ونهايةً على تحقيق رضا الله لأنّ فيه رضا الجميع من أبوين وأقربين وغيرهم وفق منهج متسلسل لا يخل بمصالح أحد ولا يساوم على حقوق أحد .